سيبَوَيهِ وبواكيرُ الاتّكّاءِ على المَقَام في التَّحليلِ النَّحويّ

د. آيات إسماعيل الصالح(*)

المقدّمة:

النَّصّ بَحرٌ واسعٌ يُخفي في داخلِهِ أسرارًا ودلالاتٍ تَأبى أنْ تَخرجَ إلّا لِمنْ امتلكَ أدواتِ الغَوصِ ثمّ أحسنَ استعمالَها، وليستْ مَظانُّ تِلكَ الأدواتِ هي المُعجمَ والنَّحوَ والصَّرفَ فحَسبُ، بَلْ إنَّ كثيراً مِنها يُتلمَّسُ من القرائنِ المَقَاميّةِ الخارجةِ عن النَّصّ، التي قَدحَتْ أولى شراراتِ تكوّنِهِ، ولا بدَّ للباحثِ عن المَعنَى وللسـاعي وراءَ القصدِ أنْ يَتَتبعَ تِلكَ القرائنَ ويُحسِـنُ تَجميعَها في عقلِهِ ثمَّ اسـتيعابَها حتّى يتَسـنّى لهُ تكوينُ فكرةٍ تامّةٍ عن النَّصّ وظروفِ تَشكُّلِهِ ومَقصدِ قائلِهِ.

وتَكمنُ أهمّيّةُ المَقَامِ في أنَّهُ يُوضّحُ المَعنَى المُرادَ تَوضيحًا دقيقًا، فإذا غابَ المَقَامُ أصبحَ الكَلامُ عُرضةً للاحتمالاتِ والتَّأويلاتِ، وأصبَحَ كلُّ شـارحٍ أو مُفسّرٍ يُدلي بدلوهِ في الكَلامِ من مَنظورِ فكرهِ وآرائِه وتصوّرِهِ. أمّا إذا عُرِفَ المَقَامُ واسـتُبينَ سـياقُ الـكَلامِ اتّضحتْ الصّورةُ ووَضحَ القَصدُ.

(*) جامعة سليمان ديميريل /قسم اللغة العربيّة / تركيا.

وكلّما كانَ وصفُ المَقَامِ أكثرَ تفصيلًا كانَ المَعنَى أكثـرَ وضوحًـا. وقديمًا كانـوا يقولـونَ: نَطَقَتْ الحـالُ، أو الحـالُ الناطقة[1]، يُشـبّهونَ المَعرِفَةَ بسـياقِ المَقَامِ باللسانِ الذي يَشي بالمَعنَى ويُنبئُ بالغَرضِ. وممّا يَقولونَه أيضًا: «أخبرتْني أساريرُ وجهِـهِ بما في ضميرِهِ، وكلّمتْني عيناهُ بما يَحوي قلبُـه، فتجدُ الحالَ وصفًا هو شـبيهٌ بالنُّطقِ من الإنسـانِ، وذلكَ أنَّ الحالَ تـدلُّ على الأمرِ ويكونُ فيهـا أماراتٌ يُعـرَفُ بها الشيءُ، كمـا أنَّ النُطقَ كذلـكَ»[2]. فكأنَّ نظراتُ العُيـونِ وتَعابيرَ الوجهِ لغـاتٌ قائمةٌ بذاتِها قد يُكتفَى بها وحدَها للدلالةِ على المَعنَى، أو قد تُعينُ في إيضاحِ المُراد.

الكلماتُ المِفتاحيّة: سيبَوَيهِ، المَقَام، السياق، السياقُ الخارجيّ، سـياقُ الحال.النَّحويّونَ والمَقَام:

لطالما بَحثَ النَّحويّون، لا سـيّما الأوائل منهم، عـن المَقَام الذي تَمخّض عن الجُملةِ، وذلكَ لأنّهم أيقنـوا أنَّ الجُمَـلَ بنـاتُ المَواقـفِ، وأنَّ التحليلَ النَّحويّ السليمَ ينبغي أنْ يَكونَ للسياقِ الخارجيّ نَصيبٌ كبيْر فيه. وإنَّ أوضحَ مَظاهرِ الالتفاتِ إلى المَقَام عندَ النَّحويّينَ لتَتَبـدّى في تَعريفِهم الكَلام بأنَّـهُ «ما تَحصَلُ بـهِ الفائدةُ، سـواءٌ أكانَ لفظًا أوخطًّا أو إشـارةً أو ما نَطقَ بهِ لسانُ الحال»[3].

(١) يُنظَرُ: مفتاح العلوم: ص٣٨٤.

(٢) أسرار البلاغة: ص٥١.

(٣) شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ص٣٦.

(٣) يُنظَرُ: الصورة والصيرورة بصائر في أحوال الظاهرة النحويّة ونظريّة النحو العربيّ: ص١٢٤. النقد اللسانيّ: ص١٩٠.

أي: إنَّ مَعنَـى الـكَلام وتَحصيلُ الفائـدةِ منهُ لا يكونُ باللفظِ فحسـب، بَلْ ربّما يكونُ بالإشـارةِ أو بتعبـيراتِ الوجهِ أو بالأمـاراتِ التي تُصاحبُ المَوقفَ الكَلاميَّ.

وسـتكونُ دراسـتُنا في هـذا البحـثِ مُخصَّصةً للنَظرِ في مَدى اسـتعانةِ سـيبَوَيهِ بعناصرِ المَقَامِ في تحليلِهِ النَّحويِّ. وربَّما كانَ تَعريفُ المَقَامِ خيرَ مبتدإٍ نَبتدئُ بهِ.**المَقَام:**

يُعرّفُ المَقَامُ أو السياقُ الخارجيُّ في علمِ اللغةِ الحَديـثِ بأنّـهُ: كلُّ العَناصرِ غـير اللغويّةِ التي تُشكّلُ المَوقفَ الكَلاميّ[4]. وعلى وفقِ ذلكَ التَّعريفِ فـإنَّ المَقَامَ يَشـملُ: المُتكلّمَ والمُخاطَـب وكلَّ مَنْ يَحضرُ الـكَلامَ، وبيئاتِهم، وثقافاتِهم، وتكوينَهم الاجتماعـيَّ، والآراءَ التي يَتبنّونَها، والأفكارَ التي يؤمنونَ بها، والإشاراتِ والتلميحاتِ التي تَصدُرُ عنهُم. ويَشـمَلُ فَضلًا عن ذلكَ: ظـروفَ الزمانِ والمـكانِ، وكلَّ العَنـاصرِ التـي تُؤثّـرُ في تركيبِ الكَلامِ وفي مَقصده.

وإذا كانَ المَـرامُ هـو اسـتخلاصَ المَعنَـى وتحصيلَـهُ، فإنَّ هذا المَبلـغَ لا يَتأتَّى بالنظر، إلى السِلسلةِ الكَلاميّة، نَحويِّها، وصَرفيِّها، وصَوتيِّها، ومُعجَميِّهـا فحسـب، فذلكَ بعـضُ المَعنَـى. أمّا الجـزءُ المُكمِّلُ فيَكمـنُ في تِلكَ الهالـةِ الخارجيّةِ التي تُلقي بخُيوطِ نورِها على الكَلامِ، فتَتَغلغلُ في أجزائِه، وتنسابُ في حناياهُ، وتَترابطُ معَه ترابطًا فريـدًا، لتعطيَهُ مَعنَىً خاصًـا لا يَكونُ إلاّ في ظِلِّ ذلـكَ النور، وضِمن تِلكَ الهالـةِ. وهذهِ المُعطياتُ

الخارجيّةُ هي ما يُدعى المَقَامَ، أو سياقَ الحال، أو السياقَ الخارجيَّ، أو سياقَ المَوقِف.

أهمّيّةُ المَقَامِ عندَ سيبَوَيهِ:

وإنْ نَحنُ أردنا ولوجَ عالَمِ اللُّغَويّينَ والنَّحويينَ فلا بدّ أنْ يُطلَّ علينا طيفُ أبي النَّحو سيبَوَيهِ، فقد لَمحَ بعبقريّتِهِ الفذّةِ أنَّ الكلام يَخضعُ لمؤثّراتِ المُحيطِ الخارجيّ، فلمْ تَقفْ حدودُ البحثِ اللُّغويّ عنده على أمورٍ نَظريّةِ العامِل، بَلْ رأيناهُ يَرسمُ سياقاتٍ للجُملِ التي يُوردُها عن العَربِ، ثمَّ يُوضّحُها في إطارِ المَقَامِ الذي قيلتْ فيهِ، أو الذي يَتَصوَّرُ أنّه تَمَخّضَ عَنها.

وقد فَطِنَ سيبَوَيهِ إلى أنَّ الجُملَةَ تتضمّنُ فراغاتٍ لا يَستطيعُ ملأَها إلّا مَن عَرفَ السياقَ الذي قيلتْ فيه[٥]. انظر إليهِ وهو يُحلِّلُ قولَهم: (الأسدَ الأسدَ) فيَتصوّرُ أنّ المتكلِّمَ قد وقفَ موقفَ المُحذِّرِ، وأنّهُ قد حذفَ فعلَ أمرٍ من كَلامِهِ لمّا تَعجَّلَ في التَّحذيرِ، حتّى كأنّهُ قالَ: «احذرِ الأسدَ»[٦]. وإذا كانتْ العلامةُ الإعرابيّةُ قد أشارتْ إلى الفعلِ المَحذوفِ، فإنّ تنغيمَ الكَلامِ بارتفاعِ الصَّوتِ الذي صدَرَ من المتكلِّمِ استجابةً لحالتِهِ الانفعاليّةِ قدّ دلَّ على أنَّهُ فِعلُ أمْر، وعلى أنَّ الجُملَةَ إنشائيّةٌ طَلبيّةٌ، وليستْ بخَبريّة[٧].

ويتوسّعُ سيبَوَيهِ في توضيحِهِ السياقَ الخارجيَّ للكَلامِ حتّى يَصلَ إلى المُتَكَلِّمِ، فيَنفذُ إلى أعماقِهِ ويَتغلغلُ في نيّتِهِ، ثمّ يُفسّرُ الكَلامَ بناءً على تِلكَ النيّةِ، أو ذلكَ المَقصد، وبهذا يَتوصّلُ إلى إعرابٍ سليمٍ لا ضيرَ فيه ولا علّة. فعلى سبيلِ المثالِ، تقولُ العَربُ في أمثالِها: (اللهُمَّ ضَبعًا وذئبًا) على سبيلِ الدعاءِ على غَنَمِ رجلٍ ما. وفي هذا المِثالِ يؤكّدُ سيبَوَيهِ أنّ ثمّةَ فعلًا مَحذوفًا، وأنَّ الكَلامَ يُحمَلُ على الدُّعاءِ، والدليلُ على ذلكَ هو نيّةُ المُتَكَلِّمينَ بالدُّعاءِ على الغَنمِ بالهَلاكِ، وتقديرُ الكَلام: «اللّهُمَّ اجمَعْ واجعَلْ فيها ضَبُعًا وذئبًا»[٨]، أمّا الذي دَفعَ إلى هذا التقديرِ فهو مَقصدُ المُتَكَلِّم.

وهذا يَعني أنَّ مَقاصدَ المُتَكَلِّمينَ قد تَقتضي الذِكرَ أو الحَذفَ، وقد تَستوجبُ التقديمَ أو التأخيرَ، أو قد تَستجلبُ أسلوبًا معيّنًا، أسلوبًا لا يُوضعُ في الكَلامِ كيفَما جاءَ واتّفَق، بَلْ يأتي تلبيةً لقَصدٍ أرادَ المُتَكَلِّمُ أنْ يوصلَهُ إلى المُتلقّي[٩].

وتعدُّ حَركاتُ المُتَكَلِّم وإشاراتُه لغةً تامّةً متكاملةَ الأركان. وليس بخفيٍّ أنَّها ممّا يَقعُ في حيّزِ المَقَام، وأنَّها ممّا قد يؤثّرُ كثيرًا في شكلِ

(٥) يُنظَرُ: في التحليل النحويّ للظاهرة النحويّة (المثال النحويّ في كتاب سيبويه بين الدلالة الاجتماعيّة والقاعدة النحويّة): ص٣٥٠.

(٦) الكتاب: ١/ ٢٧٤.

(٧) للمزيد من الشواهد حول عناية سيبويه بهذا النوع من السياق يُنظَرُ: البعد التداوليّ عند سيبويه: ص٢٥٠ وما بعدها. وسياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة: ص٥٤ وما بعدها.

(٨) الكتاب: ١/ ٢٥٥.

(٩) يُنظَرُ: مُراعاةُ قَصدِ المُتكلّمِ في التَّوجيهِ النَّحويِّ: ص٧٩- ٨٠.

التركيبِ وبنيتِهِ، فَضلًا عـن أنَّها من أكثرِ الأمورِ التـي تُعينُ عـلى تَوضيـحِ المَعنَى المقصـودِ من الـكَلام. إذْ قد يُفهمُ من إشـاراتِ المُتَكَلِّم في أثناءِ كَلامِـهِ مـا لا يَدلُّ عليـهِ لفظُه. يقـولُ الجاحظُ: «والإشـارةُ واللفظُ شريكانِ، ونِعمَ العَونُ هيَ لَهُ [أي: للمتكلّم] ونِعمَ التُّرجُمانُ هيَ عَنهُ، وما أكثرَ ما تَنوبُ عن اللفظِ، وما تُغني عن الخَطّ»(١٠).

وقد وَضَّحَ لنا سـيبَوَيهِ أثـرَ حَركاتِ المُتَكَلِّمينَ وإشـاراتِهم وتعابـيرِ وجوهِهم في تغيـيرِ البنيةِ العميقةِ للتَّراكيـبِ، يَقولُ: «وذلكَ أنّـكَ إذا رأيتَ صـورةَ شـخصٍ، فصـارَ آيـةً لـكَ عـلى مَعرِفَةِ الشَّـخصِ، فقلتَ: عبدُ اللـهِ وربِّي. كأنّـكَ قلتَ: ذاكَ عبدُ اللهِ، أو هذا عبدُ اللهِ. أو سـمعتَ صوتًا فعرفـتَ صاحـبَ الصوتِ، فصـارَ آيـةً لكَ على معرفتِهِ، فقلتَ: زيدٌ وربِّي. أو مَسَسـتَ جَسـدًا، أو شـممتَ ريحًا، فقلتَ: زيدٌ أو المِسـكُ، أو ذقتَ طعامًا، فقلتَ: العَسـلُ»(١١). فقد حُذِفَ المُبتَدأ في جُملةِ: عبـدُ اللهِ وربّي، والتقديـرُ: هذا عبدُ اللهِ. وكذلـكَ حُذِفَ في الجُملتينِ الأُخرَيـينِ، والتقديرُ: هذا زيدٌ، وهذا مِسـكٌ. والذي أجـازَ هذا الحذفَ وسـوَّغَهُ هي حركاتُ المُتَكَلِّـمِ وتعبيرُ وجهِه، وما فَهِمَهُ السـامعُ عندما رأى الأمـاراتِ الحاكيةِ عن حـالِ المُتَكَلِّم. وهذا كلُّهُ من العَناصرِ غيرِ اللُّغويّةِ التـي تَقعُ ضمنَ السـياقِ الخارجـيِّ، وقد أثّرتْ هذهِ العناصرُ في بنيـةِ الجُملَةِ وتركيبِها العميق، فجـاءتْ الجُمـلُ مُناسِـبةً للمَقـامِ، مُتوافِقةً مع مَقصدِ المُتَكَلِّم والأماراتِ الدّالّةِ على حالِه.

وممّـا يؤثّـرُ في الـكَلامِ ويَتلاعـبُ في ترتيـبِ أجزائِهِ، أو حذفِ بعضِها، أو ربّما زيادةِ بعضِها، حالةُ المُتَكَلِّمِ الشعوريّةُ. إذ إنَّ المُتَكَلِّمَ يبني كَلامَه ويرتّـبُ لَبِنـاتِ هـذا الـكَلامِ اسـتنادًا إلى حالتِه الشعوريّةِ، لأنّ اللغةَ ما هي إلّا تعبيرٌ عن المَشاعرِ التي تَكتنفُ الإنسانَ في مواقفَ مُحدَّدة.

وتدخـلُ الحالـةُ الشـعوريّةُ للمتكلّـمِ ضمنَ عنـاصرِ المَقامِ، وهـيَ تتدخّلُ بشـكلٍ مُباشرٍ في رسمِ صورةٍ للتركيبِ كثيرًا ما تكونُ مُختلفةً عن صورتِه الأساسـيّة. إذ قد يلجـأ المُتَكَلِّمُ، مثلًا، إلى اختزالِ بعضِ عناصرِ التركيبِ بُغيةَ الوصولِ إلى غايةٍ محدّدة من كَلامِه. كأنْ يقولَ: الأسـدَ الأسدَ، وتكونُ الغايةُ هي النهيَ عن الاقترابِ من الأسـدِ. أو يقـول: الجـدارَ الجـدارَ، وتكـونُ الغايةُ هي النَّهيَ عن الاقترابِ من الجدارِ المائلِ، مثلًا.

وفي كلتـا الجُملتينِ السـابقتين رأينا المُتَكَلِّمَ قد أسـقطَ الفعلَ من كَلامِه، واكتفـى بالمفعولِ به، وذلـك لأنَّ المَوقِـفَ يَتطلّـبُ أنْ يُـسرعَ المُتَكَلِّمُ في الـكَلام كي يَصلَ إلى مقصـدِهِ وهو التحذيرُ، لأنَّ التطويلَ، هنـا في هذا المَقامِ، قد يؤدّي إلى تفويتِ الغايةِ وإلى ضياعِ المَقصد. أمّا الذي دلَّ المُخاطَب عـلى الفعلِ المَحـذوفِ فهو الحالُ المُشـاهدةُ من المُتَكَلِّم، وما هو عليهِ من انفعالٍ وخوفٍ وهلَعٍ.

وإذا كانَ سيبَوَيهِ قد اهتمّ كثيرًا بالمُتَكَلِّم فإنَّهُ قد اهتمَّ قد أيضًا بالمُخاطَبِ لّما أدركَ أنّ المُخاطَبَ

(١٠) البيانُ والتَّبيين: ١/٧٨.

(١١) الكتابُ: ٢/١٣٠.

هو محورُ العمليّةِ الكَلاميّةِ، ولأجلِهِ يكونُ الكَلامُ ويُقال، لذا فإنَّ على مَن يُريدُ تفسيرَ الكَلامِ أو تحليلَه أو تقعيده أنْ يضعَ المُخاطَب في ذهنِهِ ويَعتبرَ حالَه وينزلَه مكانَه. يقولُ سيبَوَيهِ: «وإنّما أضمَروا ما كانَ يَقعُ مُظهَرًا استخفافًا، ولأنَّ المُخاطَبَ يَعلمُ ما يَعني»[١٢]. ويقولُ ابنُ السّرّاج: «والمَحذوفاتُ في كَلامِهم كثيرةٌ، والاختصارُ في كَلامِ الفُصَحاءِ كثيرٌ موجودٌ إذا آنَسوا بعلمِ المُخاطَبِ ما يَعنون»[١٣].

أمّا مسألةُ (إفادةُ المُخاطَبِ) فهيَ من أهمِّ المَسائلِ التي بُنِيتْ عليها علومُ العَربيّةِ، وذلكَ لأنَّ الغرضَ من الكَلامِ، أيّ كَلامٍ، هو إفادةُ المُخاطَبِ بمضمونِ الجُملَة. من أجلِ ذلكَ فقد بيّنَ النُّحاةُ، ومنهم سيبَوَيهِ، أنّهُ لا يَجوزُ، مثلًا، الابتداءُ بالنكرةِ، لأنَّهُ لا فائدةَ منهُ[١٤]، ولأنَّ الغرضَ من الإخبارِ هو إفادةُ المُخاطَبِ ما ليسَ عِندَه[١٥].

وكثيرًا ما نجدُ سيبَوَيهِ يَضعُ في حسبانِهِ المُخاطَبَ، وعِلْمَ المُخاطَبِ، وما إلى ذلكَ من أمورٍ متّصلةٍ بالمَقام. ففي قولِهم: (الحمدُ للهِ أهلَ الحَمد)، وما جَرى مَجرى هذا القولِ[١٦]، يَروي سيبَوَيهِ عن شيخِهِ الخليلِ أنَّ «نصبَ هذا على أنّكَ لم تُردْ أنْ تحدّثَ الناسَ، ولا مَن تُخاطِبُ بأمرٍ جَهلوهُ، ولكنّهم قد عَلموا من ذلكَ ما قد عَلمتَ، فجعلتَهُ ثناءً وتعظيمًا»[١٧]. أي: إنّه قد اعتمدَ في توجيهِ النصبِ، ههنا، على إرادةِ المُتَكَلِّم.

ولمّا سألَهُ سيبَوَيهِ عن قولِهِ تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}[الزُّمَر:٧٣]، وقولِه عزَّ وجلَّ: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً}[البقرة:١٦٥]، وقولِهِ سبحانَه: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ }[الأنعام:٢٧] قالَ: «إنَّ العربَ قد تتركُ في مثلِ هذا الخبر الجوابَ في كَلامِهم، لعلمِ المُخبَرِ لأيّ شيءٍ وُضِع هذا الكَلام»[١٨]. فعلمُ المُخاطَبِ، أو المخبَرِ، هو قرينةٌ سياقيّةٌ يُعتدُّ بها في فَهمِ المَعنَى وتسويغِ الإعرابِ عند سيبَوَيهِ.

كما بيّنَ سيبَوَيهِ أنَّ ترتيبَ الوحداتِ اللغويّةِ داخلَ الجُملَة، وتسويغَ التقديمِ والتأخير فيها، كثيرًا ما يكونُ نتيجةً لتقديرِ المُتَكَلِّم للمَوقِف الذي يُقالُ فيه الكَلامُ. إذ إنّهُ يقدّمُ ما يَرى أنّه محلُّ العنايةِ والاهتمام. يَقولُ: «كأنّهم إنّما يُقدّمونَ الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانِه أعْنَى»[١٩]. أي: إنَّ اللغةَ لا تَنفصلُ عن مُلابساتِ استعمالِها.

وعلى هذا تكونُ قاعدةُ (العنايةِ والاهتمام) من أدلِّ القواعدِ السياقيّةِ على اهتمامِ سيبَوَيهِ بتحليلِ الكَلام انطلاقًا من الواقعِ الذي يُحيطُ بالمُتَكَلِّم والمُخاطَبِ معًا. وهي قاعدةٌ تؤكّدُ أنَّ الكَلامَ إنّما

(١٢) الكتاب: ١/ ٢٢٤.
(١٣) الأصولُ في النَّحو: ٢/ ٣٢٤.
(١٤) يُنظَرُ: الكتاب: ١/ ٤٨. والأصول في النحو: ١/ ٥٩.
(١٥) يُنظَرُ: الكتاب: ٢/ ١٤٣.
(١٦) يُنظَرُ: الكتاب: ٢/ ٦٢ وما بَعدَها.
(١٧) الكتاب: ٢/ ٦٥.
(١٨) الكتاب: ٣/ ١٠٣.
(١٩) الكتاب: ١/ ٣٤.

يأتي استجابةً لحاجاتٍ نَفسيّةٍ واجتماعيّة.

ولمْ يَقفْ اهتمامُهُ عندَ المُتَكَلِّم والمُخاطَبِ فحَسب، بَـلْ تَعدَّى ذلكَ إلى إدراكِ العلاقةِ بينَهما وأثرِ هذا في التحليلِ اللُّغويِّ. فإذا قالَ المُتَكَلِّمُ: (كانَ زيدٌ)، فإنَّ المُخاطَبَ «إنّما ينتظرُ الخَبرَ»[٢٠]. وإذا قالَ: (كانَ حَليمًا) فإنَّ المُخاطَبَ يَنتظرُ مِنَ المُتَكَلِّمِ أنْ يُعرِّفَهُ صاحبَ الصفةِ[٢١]، وسيبَوَيهِ، هنا، يَصفُ لنا مُلابساتِ المَوقِفِ الذي شكَّلَ الجُملَةَ، ويَجعلُهُ ماثـلًا في مُخيلَتِنا، فإذا وضـحَ ذلكَ أمامَنا فليسَ ثمّةَ إلى اللَّبسِ وسوءِ الفَهمِ من سبيلٍ البَتَّة.

ومـن التفاتـاتِ سـيبَوَيهِ إلى المَقَـامِ أنّـهُ كانَ كثيرًا ما يَربطُ حالَ المُخاطَبِ والظروفَ المحيطةَ بالـكَلامِ بالتركيبِ النَّحـويّ، وأنّـه كانَ لا يَنظرُ إلى الكَلامِ نَظرةً سَـطحيّةً بَلْ يتغلغلُ إلى الأعماقِ باحثًا عن غرضِ المُتَكَلِّمِ وعن السـببِ الذي جَعلَهُ يَلجأ إلى أسـلوبٍ دونَ أسـلوبٍ آخـرَ. فمَثلًا يَرى سـيبَوَيهِ أنَّ الغرضَ من أسـلوبِ النداءِ هو جلبُ انتباهِ المُخاطَبِ، وأنَّ ذلكَ يكونُ باستعمالِ إحدى أدواتِ النّـداءِ، ومن هـذهِ الأدواتِ ما يكونُ لنداءِ البَعيـدِ، ومنها ما يَكـونُ لنداءِ القَريـبِ، غيرَ أنَّ هـذهِ الأدواتِ قد تَتَناوبُ في الاسـتعمالِ اللُّغويّ، فيُنـزَّلُ البعيـدُ مَنزلـةَ القَريبِ، ويُنـزَّلُ القريبُ مَنزلةَ البَعيدِ[٢٢]، وهذا يَكونُ تَبعًا لغايةٍ في نفسِ المُتَكَلِّمِ، أو لحاجةٍ اقتَضاها المَقَام.

(٢٠) الكتاب: ١/٤٨.

(٢١) الكتاب: ١/٤٨.

(٢٢)يُنظَرُ: الكتاب: ٢/ ٢٣٠.

بَـلْ إنَّ صحّةَ الكَلامِ وسـلامتَهُ إنّمـا تَعودُ إلى مَـدى مُطابقتِـهِ الواقـعَ الخارجـيَّ وموافقَتِـهِ العُـرفَ اللُّغويَّ العـامَّ. انظرْ إلى سـيبَوَيهِ وهو يُصنّـفُ الـكَلامَ بين مُسـتقيمٍ ومُحـالٍ بناءً على مـا يَتقبَّلُه أبناءُ اللغةِ وما يَجدونَهُ مُستحسَـنًا في الاسـتعمالِ ومُوافقًا المَنطقَ، يَقـولُ: «فمنهُ [أي: الـكَلامُ] مُسـتقيمٌ حَسَـنٌ، ومُحـالٌ، ومُسـتقيمٌ كَذِبٌ، ومُستقيمٌ قَبيحٌ، وما هوَ مُحالٌ كذبٌ. فأمّا المُسـتقيمُ الحَسَـنُ فقولُكَ: أتيتكَ أمسِ وسـآتيك غـدًا. وأمّا المُحال فأنْ تَنقـضَ أوّلَ كَلامِكَ بآخرِهِ فتقولُ: أتيتكَ غدًا، وسـآتيكَ أمسِ. وأمّا المُستقيمُ الكَذبُ فقولُكَ: حَملتُ الجَبلَ، وشربتُ ماءَ البَحرِ، ونحوه. وأمّا المُسـتقيمُ القبيحُ فـأنْ تَضعَ اللفظَ في غـيرِ مَوضِعِه، نحوَ قولِكَ: قد زيدًا رأيتُ، وكي زيدٌ يأتيكَ، وأشـباهِ هذا. وأمّا المُحالُ الكَذبُ فأنْ تَقولَ: سوفَ أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ»[٢٣].

فـإذا وافـقَ الكَلامُ قواعدَ النَّحـوِ قيلَ عنهُ: إنّهُ مُسـتقيمٌ. وتتفاوتُ درجاتُ هذهِ الاسـتقامةِ بينَ الاستحسانِ والاستهجانِ بناءً على مُوافقةِ القولِ العُرفَ في الاستعمالِ.

وقد يكونُ الكَلامُ مُسـتقيمًا استقامةً شكليّةً، لا يَخرجُ عن القواعدِ اللُّغويّةِ غيرَ أنَّهُ لا يَنسـجمُ مع الواقعِ، فيُقالُ فيهِ حينئذٍ: إنّهُ مُحالٌ. ومثالُه: حَملْـتُ الجَبلَ، وشربْتُ ماءَ البَحرِ. ولو نظرنا إلى هاتينِ الجُملتَـينِ لوجَدْنا أنَّ بنيتَيهمـا ممّا يَكثرُ في الـكَلامِ العَربـيّ، إذ تتألّفانِ من فِعـلٍ وفاعلٍ

(٢٣) الكتاب: ١/ ٢٥- ٢٦.

ومَفعولٍ بهِ، فهُما صَحيحتانِ من حيثُ الشكلُ، بيدَ أنّهما غيرُ مَقبولتينِ دلاليًّا بسببِ إهدارِ قوانينِ التَّرابطِ المَنطقيّ بينَ مَعاني المُفرداتِ، وعدمِ مُوافقتِهما ما تَعارفَهُ أبناءُ اللُّغةِ(٢٤).

وهكذا فإنَّ سيبَوَيهِ يُقسّمُ الكَلامَ إلى مُستقيمٍ ومُحالٍ مُراعيًا السياقَ اللُّغويَّ في كيفيّةِ ارتباطِ الوَحداتِ اللُّغويّةِ، واضعًا في حُسبانِهِ السياقَ الخارجيَّ وما يُناسبُ مَوقِفَ الكَلامِ ومُحيطَهُ العامَّ.

الخاتمةُ:

وممّا تقدّمَ يُمكنُنا القولُ: إنَّ سيبَوَيهِ قد احتفى بالمَقَامِ في تَحليلاتِهِ النَّحويّةِ لأساليبِ الكَلامِ، وإنَّهُ لطالَما كانَ يَفزعُ إلى عناصرِ المَقَامِ ويَستعينُ بالمُلابساتِ التي تُحيطُ بالكَلامِ كي يُوضّحَ المَعنَى ويُزيلَ اللَّبسَ. من أجلِ ذلكَ كثيرًا ما نَجدهُ يُصوّرُ لنا المَوقِفَ الاجتماعيَّ الذي صَدرَ فيه الكَلامُ من أجلِ أن يُبرّرَ أيَّ عُدولٍ عن الأصلِ أو خُروجٍ عن القاعدة.

المصادر والمراجع:

- أسرارُ البلاغة: عبدُ القاهر الجُرجانيّ، قرأهُ وعلّقَ عليهِ: محمود محمّد شاكر، ط١، مصر، القاهرة، مطبعة المدنيّ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- الأصول في النَّحو: ابن السرّاج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط٣، لبنان، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- البُعدُ التداوليُّ عند سيبَوَيهِ: إدريس مقبول، مجلّةُ عالمِ الفكر، الكويت، مج٣٣، ع١، يوليو/ سبتمبر، ٢٠٠٤م.
- البيانُ والتَّبيينُ: عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٧، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- سياقُ الحالِ في كتابِ سيبَوَيهِ، دراسةٌ في النَّحوِ والدلالةِ: أسعد خلف عوادي، دار الحامد، الأردنّ، ٢٠٠٩م.
- شذورُ الذهبِ في مَعرِفَةِ كَلامِ العَرب: ابنُ هشامٍ الأنصاريُّ، تحقيق: عبد الغنيّ الدقر، د.ط، سوريا، دمشق، الشركةُ المتّحدةُ للتوزيع، د.تا.
- الصورةُ والصيرورةُ بصائرُ في أحوالِ الظاهرةِ النَّحويّةِ ونظريّةِ النَّحوِ العَربيّ: نهاد الموسى، ط١، عمّان، دار الشروق، ٢٠٠٣م.
- علمُ اللغةِ الاجتماعيُّ في كتابِ سيبَوَيهِ: محمّد خالد إبراهيم، مصر، القاهرة، مجلّة كليّة دار العلوم، ع١٠٥، يوليو ٢٠١٧م.

(٢٤) لمزيدٍ من الأمثلةِ حولَ مراعاةِ سيبوَيهِ للسياقِ الخارجيِّ يُنظَرُ: الوجهةُ الاجتماعيّةُ في مَنهجِ سيبوَيهِ في كتابِهِ: ص٣١٦ وما بَعدَها. وعلمُ اللغةِ الاجتماعيِّ في كتابِ سيبوَيهِ: ص٢٧٨ وما بعدَها. والنَّحوُ المقاميُّ في كتابِ سيبَوَيهِ: ص٢٢٩ وما بَعدَها.

- في التَّحليلِ النَّحويِّ للظاهـرةِ النَّحويّةِ (المِثالُ النَّحويّ في كتابِ سـيبَوَيهِ بينَ الدلالةِ الاجتماعيّةِ والقاعدةِ النَّحويّةِ): حَسـن الملخ، الإمارات، دبي، مجلّة كلّيّةِ الدراساتِ الإسلاميّةِ والعربيّة، ع٢٠، شوّال ١٤٢١هـ/ يناير ٢٠٠١م.
- الكتابُ: سـيبَوَيهِ، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، ط٣، مصر، القاهـرة، مكتبة الخانجيّ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- مراعاةُ قصدِ المُتَكَلِّم في التَّوجيهِ النَّحويّ: عادل فتحي رياض، مـصر، القاهرة، كلّيّة دار العلوم، مجلّة كلّيّة دار العلوم، ع٤٤، ٢٠٠٧م.
- مفتـاحُ العلوم، أبـو يعقوب يوسـفُ بنُ أبي بكرٍ السَّـكّاكيّ، ضبَطَـهُ وكتبَ هوامشَـهُ: نعيم زرزور، ط٢، لبنـان، بيروت، دار الكتبِ العِلميّة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- النَّحـوُ المَقَامـيُّ في كتابِ سـيبَوَيهِ: بودرامة، الزايديّ، الجزائـر، جامعة بسـكرة، مجلّة كلّيّةِ الآدابِ واللغاتِ، ع١٨، يناير، ٢٠١٦م.
- النقـدُ اللسـانيُّ، ترجمـة: عفـاف البطاينة: فاولـر، روجـر، ط١، لبنـان، بـيروت، المنظّمـةُ العربيّةُ للترجمةِ، ٢٠١٢م.
- الوجهةُ الاجتماعيّةُ في مَنهجِ سيبَوَيهِ في كتابِهِ: نِهاد المـوسى، مقالٌ ضمن كتـاب: ١٦ مقالًا عن سـيبَوَيهِ، د.ط، إيران، شـيراز، جامعة شـيراز، ١٣٥٣هـ.